
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

# ابن تاويت والتراث الخلدوني

محمد بن شريفة

تأتي مشاركتي بموضوع يبدو أنه ضروري في هذه الندوة الثانية التي تعقد عن ابن خلدون بكلية الآداب[1]، وهو قول كلمة في حق رجل لعله يأتي - إذا كان ثمة تصنيف - في المرتبة الأولى بين الذين عاشروا ابن خلدون أو درسوه، وخصوصاً على مستوى النصوص، وأقصد المرحوم الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. وقبل ذلك أريد أن أشير إلى ملحوظة حضرتني وأنا أفكر في ابن تاويت، وهي باختصار، هذه الحيوية التي ما تفتأ تطبع الفكر المغربي برغم المعوقات التي تعترض سبيله، وتحضرني هذه الملحوظة بمناسبة حالنا مع ابن خلدون، وحال ابن تاويت الطنجي مع ابن خلدون. ذلك أن تراث ابن خلدون، وهو تراث متنوع، وينبغي أن ينظر إليه على أنه كل متكامل؛ هذا التراث لم يحفظ - فيما عدا «المقدمة» و«التاريخ» - إلا في المغرب، فمؤلفاته : «لباب المحصل»، و«شفاء السائل»، و«شرح الأرجوزة» المخطوطة في خزانة القرويين، كل هذه المؤلفات لا توجد مخطوطاتها إلا في المغرب وهذا يعطي معنى، سواء عند الأقدمين، وسنرى أن ذلك عند المحدثين أيضاً، في مغربية ابن خلدون.

أما معرفتنا بابن خلدون في العصر الحاضر فهي وإن جاءت متأخرة إلا أننا لحقنا نصيباً من المشاركة، طبعاً هي جاءت متأخرة، لأن

1 - الندوة الأولى بتاريخ 1962. وقد نشرت أعمالها في كتيب مستقل.

«المقدمة» وهي الأثر الأول الذي عرف بين آثار ابن خلدون، طبعت في منتصف القرن 19 في سنة 1858 سواء في ذلك طبعة باريز أو طبعة مصر بتحقيق نصر الهوريني، وتعرفنا على ابن خلدون أو اهتمامنا به في العصر الحاضر كان مطبوعاً بطابعين : 1) الشعور بمغربية الرجل من جهة، و 2) الإحساس الوطني الذي ظهر مع الحركة الوطنية في المغرب وأشير في هذا المجال إلى ذلك المشروع الجليل في وقته والذي تمثل في محاولة إخراج طبعة محققة من «تاريخ» ابن خلدون، وهذه المحاولة التي كانت في سنة 1936 والتي أشرف عليها كتبي معروف بفاس هو محمد المهدي الحبابي، أنجز منها عدة أجزاء وكانت بتحقيق الأستاذين المرحومين علال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس مع تعليقات للمرحوم شكيب أرسلان. ثم كان التعرف في المغرب على أثر جديد لابن خلدون وهو «شفاء السائل»، وكانت ثمة مساجلة حول هذا الكتاب بين الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله والأستاذ عبد الرحمان الفاسي، وذلك قبل أن ينشر هذا الكتاب[2].

ولا أريد أن أشير إلى المقالات التي ظهرت حول ابن خلدون في المجلات المغربية كعلامة من علامات الاهتمام بالرجل، وقد توج كل ذلك في السنوات الأخيرة برسالتين جامعيتين أسهمتا في تقدم الدراسات الخلدونية، وأعني بهما رسالة الأستاذ الجابري ورسالة الأستاذ أومليل وكذلك بمحاولة للأستاذ الحبابي.

ثمة أثر آخر لابن خلدون يعتبر أول آثاره أو باكورة أعماله وهو «لباب المحصل» الذي طبع في تطوان سنة 1952 بعناية معهد مولاي الحسن.

أما المشاركة المغربية الكبرى والعناية القصوى بابن خلدون وبآثاره ككل فقد جاءت من قبل باحث عصامي يستحق منا أن نخصص له هذه الكلمة كمحاولة للتعريف به وأعني به الأستاذ ابن تاويت الطنجي.

يستوقفنا أولاً هذا الاسم في نسبه وهو اسم تاويت، وقد كنت وقفت عليه في «معجم السفر» للحافظ السلفي (من أهل القرن

---

2 - المساجلات نشرت في مجلة «رسالة المغرب» سنة 1948.

السادس) حين ترجمته لأحد الأعلام المغاربة الذين زاروا المشرق في القرن السادس ويدعى أبا أحمد عبد الله بن تاويت اللمتوني وهذه الشخصية اللمتونية الصنهاجية التي زارت المشرق بقصد الحج والعلم واتصلت بشيخ العلم في الإسكندرية في هذا العصر، تنتسب فيما ذكر السلفي إلى الأمراء اللمتونيين. وقد لفت نظري تعرضه لشرح الاسم أو اللقب «تاويت» وذكر أنه اسم بربري تفسيره «صياح»، وكنت حينما وقفت على هذا تحدثت إلى الأستاذ ابن تاويت الطنجي في موضوعه متسائلاً عن الصلة بين هذا الاسم الذي يرجع إلى القرن السادس وبين الاسم الحالي. فلم يستبعد ذلك، ولكن ابن عمه الأستاذ ابن تاويت التطواني ذكر لي أن اسم «تاويت» قد يكون محرفاً عن «ثابت». ومهما يكن الخلاف في الرسم فقد أحببت أن لا تفوتني الإشارة إليه وأنا أبتدئ الكلام عن ابن تاويت الطنجي.

ينتمي ابن تاويت إلى أسرة ترجع في أصلها إلى ودراس، وهي غير بعيدة من تطوان. ونعرف من هذه الأسرة فرعين : فرعاً استقر بتطوان، وفرعاً آخر انتقل إلى طنجة، ومنه الأستاذ المرحوم، الذي ولد ببلده الأصلي (ودْرَاسْ) في أوائل العقد الثاني من هذا القرن. وقد انتقلت الأسرة إلى طنجة في نهاية الحرب الريفية، وكانت على صلة بزعيمها البطل عبد الكريم، والذي أعرف أن والده كان من أهل العلم والفضل. وقد أطلعني ابن تاويت على مخطوطات ورثها عنه، وهي مخطوطات في التصوف في جملتها، وعلمت من أستاذنا الجليل سيدي عبد الله كنون أنه كان من مريدي الطريقة الناصرية كبقية أفراد الأسرة.

درس ابن تاويت على والده في طنجة وعلى بعض أهل العلم هناك، ثم انتقل إلى القرويين وفيها كان تكوينه الأول، ويلفت النظر أنه في أثناء دراسته في القرويين اتصل اتصالاً وثيقاً بشيخ علم الفلك في وقته سيدي محمد العلمي وأخذ عنه ما يتصل به، وهذه ناحية سنرى مدى تأثيرها في عقلية ابن تاويت العلمية.

وبعد ذلك انتقل إلى المشرق مع تلك البعثة الأولى التي أسِّس من أجلها بيت المغرب في القاهرة، في أواخر العقد الرابع. ودرس في جامعة القاهرة حيث حصل على الإجازة من كلية الآداب، وانتسب فيها

بعد ذلك إلى الدراسات العليا - قسم اللغات الشرقية - ودرس اللغة التركية. وفي هذه الحقبة كان ابن تاويت يلازم دار الكتب المصرية ويتعرف على المكتبة الإسلامية، وفي هذ الحقبة أيضاً ظهر اتصاله بابن خلدون وبدأ تعرفه عليه من خلال الترجمة الشخصية التي ألحقها ابن خلدون بآخر تاريخه، وهذه الترجمة الشخصية هي المعروفة بـ «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً شرقاً». وقد عكف ابن تاويت على تحقيق هذا النص الذي ظهر بعد مدة من الزمن في حلة قشيبة وعلى نحو من التحقيق العلمي الفريد، بحيث أن هذا الأثر من آثار ابن خلدون الذي حققه ابن تاويت أصبح مثلاً يقتدى ونموذجاً يحتذى ويرجع إليه فيما يخص تحقيق النصوص وضبطها. وهذا النص الذي أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر والذي ذاع أمره واشتهر به ابن تاويت عند الباحثين في ابن خلدون لفت أهل العلم إلى هذه الشخصية. ولم يكن في الواقع إخراجه لـ «التعريف» إلا مقدمة لعكوفه على العمل الكبير أي على جمع مخطوطات «المقدمة» و«التاريخ» في الوقت نفسه. وإذا كنت لا أستطيع الآن تقييم عمله فيما يخص «المقدمة» و«التاريخ» فإنني أقتصر على وصف منهجه في التحقيق بالنسبة إلى الأثرين اللذين أظهرهما قبل وفاته، وأعني بذلك «التعريف» و«شفاء السائل». وقبل ذلك أحب أن أشير إلى أن الأستاذ ابن تاويت الطنجي أصبح وهو يلازم دار الكتب المصرية ويصابحها ويماسيها، مرجعاً لكثير من الباحثين والمهتمين بالتراث الإسلامي بحيث أن جامعة الدول العربية حينما أنشأت معهد المخطوطات انتدبته ضمن لجنة ليذهب إلى تركيا وليبحث عن المخطوطات الموجودة في الأستانة، وهنالك كان احتكاكه الأول بمخطوطات إستنبول وكان ذلك الاهتمام الذي لم يفارقه حتى وفاته. وعندي أن ابن تاويت الطنجي كان يترسم في نهجه خطى سلفه من المغاربة الأقدمين كأبي حيان الغرناطي أو المحدثين كالشيخ محمود بن التلاميذ الشنقيطي.

وأحب أن أرجع كذلك إلى الإشارة إلى نبوغه في أثناء الدراسة وإلى التمثيل في هذا النبوغ بما كان له من صلة ببعض أساتذته في الجامعة المصرية أمثال طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي. فأما أحمد أمين فهو الذي رحب بمجهوده كما أشرت إلى ذلك، وهوالذي احتضن

نشره، لأنه كان يشرف على لجنة التأليف والترجمة والنشر. وأما أمين الخولي فقد كانت للأستاذ ابن تاويت صلة وثيقة به، وكان معجباً بفكره الدقيق وبطريقته في تكوين عقول تلاميذه، وبرغم إنتاجه القليل فقد كان ابن تاويت لا يفتأ يذكر شيخه هذا. وعلى ذكر الشيخ أحب أن أشير إلى شكر زوجته الدكتورة عائشة عبد الرحمن للأستاذ ابن تاويت الذي سجلته في مقدمة «رسالة الغفران» على مساعدته العلمية.

لقد كانت ظروف الحرب العاليمة الثانية التي أرغمت ابن تاويت على البقاء في مصر سبباً من أسباب عكوفه على قراءة المخطوطات في مختلف فروع الثقافة الإسلامية. وكان ذلك من الأسباب أن يصبح ابن تاويت محققاً من الطراز الأول، يذكر في جملة هولاء المحققين المشهورين من محققي النصوص العربية في مصر أمثال الأساتذة محمود شاكر وعبد السلام هارون وسيد صقر.

ويبدو لي أيضاً أن إدمان ابن تاويت على قراءة مقدمة ابن خلدون ولاسيما الباب السادس منها دفعه إلى المشاركة الفعلية في الثقافة الإسلامية، هذه المشاركة التي كان عنده مبادئ منها منذ دراسته في القرويين ودعته إلى أن يعكف عكوفاً طويلاً على القراءة الجادة في المكتبة الإسلامية سواء منها المطبوع أو المخطوط. وقد سلك سبلاً ومسارب عديدة وقرأ قدراً هائلاً من الكتب، ولم يكن أبداً كبعض الناس يقف عند حفظ أسماء الكتب، وبذلك كله أصبح من خبراء التراث الإسلامي المعدودين.

كان من بين النصوص التي أخرجها المرحوم ابن تاويت في وقت مبكر كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي، ويبدو أن الشيخ زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية في وقته هو الذي ندب ابن تاويت إلى القيام بهذا العمل بعد أن كان قد انتهى من إخراج «التعريف».

وكان ابن تاويت يتصل بهذا الشيخ الذي نشر نصوصاً محققة في الحديث وغيره ويكن له كثيراً من الاحترام. وكان الشيخ يقدر علم ابن تاويت ومعرفته، وقد كتب في مقدمة تحقيق «جذوة المقتبس» مقدمة نوه فيها بابن تاويت تنويهاً كثيراً. ومما جاء فيها قوله :

«والأستاذ الطنجي نشأ نشأة علمية طيبة في بلده ثم رحل إلى

المشرق في سبيل تحقيق بعض الكتب واتصل بالبيئات العلمية فحاز تقديرهم : بما قام بتحقيقه من الكتب المنشورة تحت إشرافه وظهرت مواهبه للملإ ونال كل ثناء، فأصبح جامعاً بين الثقافتين : الغربية والشرقية بالمعنى المعروف عند القدماء. وبرغم المجهود الذي بذله ابن تاويت في تقديم هذا النص وتخريج شواهده فقد جاء دون عمله في «التعريف» بكثير، وكأني أحسست من الأستاذ ابن تاويت مرة تبرمه – وهو صاحب الهمة البعيدة التي تنشد الكمال – من أن يسمي عمله في «الجذوة» تحقيقاً، على أنه في واقع الأمر عمل لا بأس به، ولكن هذا التحقيق كان يلقى من بعض المحققين والدارسين – لأسباب غير علمية ربما – شيئاً من الإغضاء عنه وعدم الالتفات إليه. ومن الغريب أن بعضهم حاول تجاهل تحقيقه الممتاز لكتاب «التعريف»، ولكنه فرض نفسه على التاريخ والباحثين في ابن خلدون، وجعل الدارسين يرجعون إلى الطبعة المحققة لابن تاويت».

كان ابن تاويت تراثياً مستنيراً وآية ذلك أنه لم يكن يقع إلا على الكتب الممتازة أو الرفيعة من نصوص التراث الإسلامي، ومن أمثلة ذلك أنه عني بإخراج نص في الصيدلة للبيروني، وقد كان عكف مدة طويلة على خدمة «المقدمة» و«التاريخ» ولكن عمله فيهما لم يتيسر إخراجه إلى الآن. وكان ابن تاويت مزاحَماً ببعض المحققين في معظم النصوص التي أخرجها، فقد زوحم وهو يحقق نص أبي حيان التوحيدي «أخلاق الوزيرين» بالدكتور إبراهيم الكيلاني، وزوحم وهو يحقق نص «شفاء السائل» بالأب أغناطيوس عبده خليفة رئيس تحرير مجلة «المشرق»، وزوحم وهو يعد مقدمة ابن خلدون وقبل أن يخرجها بالأستاذ علي عبد الواحد وافي الذي أخرجها كما نعرف في أربعة أجزاء ولكن أعمال ابن تاويت وتحقيقاته تكتب لها دائماً الأولوية في نظر الباحثين المدققين، وفي رأي الدارسين المحسنين؛ فالفرق كبير بين تحقيقه «شفاء السائل» وبين تحقيق الأب عبده خليفة، مع احترامنا لجهوده، والبون شاسع كذلك بين تحقيقه لـ «أخلاق الوزيرين» وبين تحقيق الأستاذ إبراهيم الكيلاني. ومن النصوص الجيدة التي أخرجها كتاب «المكاثرة عند المذاكرة» للطيالسي.

ولقد كان ابن تاويت رحمه الله موزعاً بين موضوعات عديدة

واهتمامات مختلفة، فقد أُغْرِيَ بتصوير عدد من المخطوطات الجيدة في الخزائن التركية ونقلها وإخراجها على الورق والاشتغال بها في وقت واحد، فـ «ديوان الحطيئة» و«الفهرست» لابن النديم وغيرهما مما أنفق في خدمته وقتاً غير قليل.

أحب أن أشير إلى فترة مهمة من مراحل إنتاج ابن تاويت، وهي المرحلة المغربية، بعد الإشارة إلى المرحلتين السابقتين : المصرية والتركية الأولى. لقد عرف ابن تاويت على صعيد المحققين، واشتهر أمره، وكان أن زار المغرب بمناسبة ذكرى القرويين وحن بعد ذلك إلى المجيء إلى المغرب، ثم كان إنشاء وزارة الدولة للشؤون الإسلامية باعثاً على استحضاره إلى هذه الوزارة من أجل مشروع كبير لإخراج عيون من التراث الإسلامي والمغربي.

ففي هذه الحقبة التي قضاها في المغرب سواء في وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية أو بعد أن أدمجت في وزارة الأوقاف قام بمحاولة لتحقيق نصوص عديدة وظهرت له نصوص في ثلاث سلاسل :

1 – السلسلة اللغوية : وفيها كان إخراج ذلك الجزء من «اختصار كتاب العين» للزبيدي.

2 – السلسلة الدينية : ويندرج فيها كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» للقاضي عياض، وكتاب «الأربعين حديثاً» للمنذري.

3 – السلسلة التاريخية : وقد حاول أن ينهض فيها بإخراج كتاب «المدارك» للقاضي عياض، وهو مشروع جليل بدأه بالجزء الأول ولم يكتب له أن يسير فيه إلى النهاية.

وفي كل هذه الأعمال كان ابن تاويت يقدم لتحقيقاته بمقدمات فيها كثير من النضج العلمي، وفيها كثير من الجهد، فضلاً عن أنها تبقى كما قلت نماذج للتحقيق العلمي ومنهجيته في إخراج النصوص التراثية، وكل ذلك جعل من عالمنا المرحوم مرجعاً لأهل الدرس والبحث في الشرق والغرب. وقد اكتسب بتواضعه وأمانته مكانة لدى البيئات العلمية.

وقد سمعت الثناء على علمه وعمله من غير واحد من الأعلام أذكر منهم على سبيل المثال الأساتذة عبد العزيز الأهواني وأمجد الطرابلسي وأحمد سيد صقر وفؤاد السيد وعبد الرحمن بدوي وإحسان

عباس وشكري فيصل وحسن حسني عبد الوهاب وإبراهيم شبوح، وغيرهم.

كما حظي بتقدير عدد من المستشرقين منهم الأساتذة : ماسينيون وريتر وغرسية غومس وروزنتال وريزيتانو، وغيرهم.

وفي الخلاصة أؤكد أن ابن تاويت رحمه الله يعتبر في المرتبة الأولى كما قلت بين المعتنين بابن خلدون على مستوى النصوص، وما زال تحقيقه لـ «التعريف» مصدراً لكثير من الدارسين وكذلك توثيقه لهذا النص، واعتماده في تحقيقه على مجموعة كبيرة من النسخ تبلغ العشرين أو تكاد تبلغ العشرين، وكتابته لحواشٍ وتعليقات هي آية في الدقة والإتقان بحيث إنها تنقل عنه من قبل محققين كثيرين حينما يقتضي الأمر أو يستدعي ذلك ما تتعلق له صلة بهذه الحواشي أو التعليقات. ويمكن أن أقول إن حواشيه على «التعريف» هي بمثابة مواد أشبه ما تكون بهذه المواد المركزة التي نقرأها في دوائر المعارف ولاسيما في دائرة المعارف الإسلامية فهو بالنسبة للأماكن يعنى بالتحديد، ويذهب إلى أبعد من ذلك حتى إلى العناية بما يستند فيه على ثقافته الفلكية القديمة التي درسها في القرويين على يد سيدي محمد العلمي فيما يتعلق بخطوط الطول وخطوط العرض.

أما «شفاء السائل» فقد كان مدار التحقيق فيه والتقديم له يدور على أربع نقاط : هل «شفاء السائل» لابن خلدون؟ ولم ألفه؟ ومتى ألفه؟ وأين ألفه؟

بقيَ بعد ذلك الإشارة ولو باختصار إلى جهده الكبير بالنسبة لـ «المقدمة و«التاريخ»، ويمكن أن نقول إن «المقدمة» برغم طبعاتها وتعدد هذه الطبعات على أزمنة أو أحقاب عديدة لم تخرج بعد في طبعة مقارنة حسب نسخ المقدمة الكثيرة، وهذا الجهد هو الذي نهض به الأستاذ ابن تاويت، وعكف عليه سنين عديدة نحو الثلاثين سنة. ذلك أنه بلغ فيه مبلغاً كبيراً من الدقة والتقصي والاستقراء. وهذا العمل لا يزال مخطوطاً إلى الآن، وقد كنت وقفت في بيته ومكتبته على هذا العمل وهو محضر ومهيأ. ولعلي في ختام هذه الكلمة أشير إلى مسؤوليتنا تجاه تراث ابن تاويت الطنجي كتراث يقع في الدرجة الأولى بالنسبة لابن خلدون ومعرفة ابن خلدون ولاسيما فيما يتعلق

بـ «المقدمة» التي هي مادة لا تنتهي للباحثين، ولا شك أن في إعداد ابن تاويت لها ما سيغير الكثير من الأحكام التي صدرت حتى الآن حول ابن خلدون. ولم يكن ابن تاويت يعنى بـ «المقدمة» فحسب، وإنما كان يهتم بالتاريخ كامتداد لها وكتطبيق لنظرية ابن خلدون التي وصفها في «المقدمة». وكانت له أدلة وبراهين تنفي ما يشاع من أن «التاريخ» ليس فيه ظل لآراء ابن خلدون في مقدمته.